

ثقافة الصورة.... الراهن اليومي

"مُدخلية" الاتصال والتقنية في استنباط مشروع قيمي أخلاقي

The culture of the image ... the daily present, the input to communication
and technology in devising a moral and ethical project

مختبر الفلسفة وتاريخ الزمن الحاضر (وهران2).	فلسفة	بن جلطي محمد* Bendjelti Mohamed mohamed.bendjelti@univ-biskra.dz
كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية جامعة محمد خيضر بسكرة.		
مختبر الفلسفة وتاريخ الزمن الحاضر (وهران2).	فلسفة	بن عياد فاطمة زهرة Benayad Fatima Zohra Benhouda38@yahoo.com
كلية العلوم الاجتماعية. جامعة محمد بن أحمد وهران 2.		
DOI : 10.46315/1714-010-002-017		

الإرسال: 2020/03/25 القبول: 2020/08/23 النشر: 2021/03/16

ملخص: أضى الانتقال اليوم الى عالم رقمي افتراضي - يخترق المكان والزمان - يساهم في إحداث شرخ قوي ساهم الى حد بعيد في تفتيت النسيج الاجتماعي الأخلاقي، بل خلق واقعا لا يعطي مفهومي الهوية والانتماء أي قدر من الاهتمام بشكل أصبح يهدد كل ما هو قيمي إنساني وجمالي. وهو ما يستوجب إعادة النظر في الشبكة المعرفية للمنظومة القيمية الراهنة ومحاولة بناء مدونة أخلاقية جديدة تمكنا من التغلب على أشكال الفوضى التي جعلت الأفراد يعيشون داخل المجتمع غربة، تنعكس على ميولاتهم، وأنماط قيمهم، أي لابد من إيجاد علاقة جديدة تسمح بإعادة بناء الذات في علاقتها بالعالم والتكنولوجيا والمستقبل.

الكلمات المفتاحية: الصورة؛ الافتراض؛ التقنية؛ الاتصال؛ الأخلاق.

Summary

The transition to the virtual digital world which penetrates space and time creates a fracture of the fragmentation of the social and moral fabric and a reality which gives no interest to the concepts of identity and belonging. It threatens human values. This requires an examination of the knowledge network of the value system and constructing a new ethical code which makes it possible to overcome the forms of chaos which push individuals to live in a foreign society, reflected on trends and values, find a new relationship which allows self-reconstruction with the world, technology and the future.

Keywords: Image ; assumption ; technology ; communication ; ethics .

مقدمة:

تكشف لنا عبارة ريجيس دوبريه هذه عن وصف دقيق لحالة الإنسان اليوم أمام المشروع الثقافي الأخلاقي العولمي، الساعي لتأسيس منظومة قيم جديدة تحل محل التراث القيمي الأخلاقي للبشرية. وذلك بشكل يعمل على ملئ مخيلة المشاهد لا شعورياً بفكر وثقافة دخيلين على ثقافته الأصلية ومغايرة لها تماماً. وقد تتمثل في هذا المقام الفلسفي قول: "إن الصورة أكثر عدوى وأكثر وباءاً من الكتابة....، فهي

* - الباحث المرسل: mohamed.bendjelti@univ-biskra.dz

تمتلك موهبة رئيسية تكمن في وضع لحمة المجموعة المؤمنة، وذلك لمهارات الأفراد بالصورة المركزية للمجموعة." (ريجيس د، حياة/الصورة وموتها، ص 72).

فهي - أي الصورة - تتحايل على مخيلة المشاهد وتعمل من خلال هؤلاء الأبطال على تمرير الرسائل والعلامات، وتعمل في الوقت عينه على ترسيخها في المخيال الشعبي لدى المجتمعات اليوم. فهي تستهدف الأصالة والتاريخ اللذين استلزمنا وقتًا ليس بالهين كي يتأسسا.

إن هذا التعولم التكنولوجي التقني، والذي يحاول التأسيس لمنظومة قيم جديدة تحل محل التراث القيمي الأخلاقي، لم يعد على الإنسان بالفائدة بل ساهم في إحداث شرخ قوي في منظومة التواصل الاجتماعي لديه، وساهم إلى حد بعيد في تفتيت النسيج الأخلاقي، لذلك وجب على الفكر الإنساني إعادة عملية التحليل العلمية الدقيقة والمتأنية لاكتشاف موضوع العلاقة بين العولمة والأخلاق والاجتماع، خاصة في تجلياتها الاتصالية.

هذا التقاطع، هو ما سيعيد سؤال القيم والأخلاق والاجتماع إلى الساحة الفكرية الراهنة بشدة، خاصة وأن الأغلبية لم تنفك تفكر في مستوى الاختراق الأخلاقي الثقافي وكمية التدفقات الإشهارية أو الدرامية المصوّرة. كيف لا وهذا المستوى من الخلط في البنيات الأساسية يعيد التأسيس الدلالي لعلم الاجتماع التقليدي، كمفهوم بني فيما قبل على معطى القوميات المجتمعية، وعلى رقعة جغرافية محددة، لها تاريخها الخاص بعلم الاجتماع حركي قادر على تجاوز حدود الدولة - الأمة.

هذه التدفقات المختزلة في الصورة الماهرة، المدهشة والمخدرة، الملتوية والمركبة كما وجدها دوبريه، والتي استطاعت اختراق ثقافات ومنظومات فكرية، بحيث تمكنت من تأويل وتحليل كل أشكال التصورات القيمية والثقافية... هل تقرب أم تبعد؟ ما المقصود من مجتمع الصورة أو التركيب الافتراضي؟ ما ثقافة الصورة؟ هل يحمل المشاهد ثقافة المشاهدة؟ أم أن الصورة أحالتنا إلى أمة المشاهدة؟

بتعبير آخر، ألا تؤسس ثقافة المشاهدة لنوع من التسليم اللامسؤول أو لنموذج من الأفراد المتفرجين اللامبالين والمتخاذلين، الذين لا يشعرون بالإدانة الأخلاقية أو الاشتمزاز تجاه الأوضاع الخاطئة المعروضة أمامهم؟

ألا يجعل هذا الطرح المجتمعات الراهنة مجتمعات عاجزة ذات شمولية في الاختيار بأن تشترك عيش حالة الشفقة على الذات الإنسانية فقط بدل التحلي بالمسؤولية والالتزام تجاه قضاياها الراهنة؟ إن هذا الإشكال المطروح أمامنا يظهر أهمية ما نحاول دراسته اللحظة، لأن أي مشروع لرفض الحضور التقني داخل المنظومة القيمية هو من السذاجة بمكان وحتى التطرف والانزواء. لأننا اليوم محاطون - بالشكل الإيجابي أو السلبي - بالتقنية بجميع مظهراتها وما علينا إلا أن نستثمر فيها من زاوية الكسب الإيجابي قد المستطاع. ولن يكون ذلك ونحن نتعامل مع هذا الحاضر بوسائل الماضي.

لذا فإن المنهج التفكيكي والتحليلي باستخدام كل الموارد المتاحة، هو ما سنحاول استخدامه، لأن موضوع القيم يستدعي مسح جميع التفرعات العلمية من الاقتصاد إلى العلوم الشرعية والنفسية ... ، بغية محاولة جمع شامل وقد المستطاع لمراجع هذا العمل.

العرض:

يمكن القول إن الاعتبار الأساس في موضوع الأخلاق العام هو العلاقة الرابطة بين الثلاثية التالية: "المنع... الرغبة... الإغراء"، والتي ننطلق منها كقاعدة ضرورية لفعل التمييز - التمييز بين الخير والشر - المحدد أو الموجه للفعل الأخلاقي. بتعبير آخر إن فعل التمايز هو ما يحدد الخصوصيات التي تسمح لنا بالتفرقة بين الأشخاص مثلا أو الأفكار أو الكائنات بصفة عامة، بأن يسمح بوجود هوية خاصة لكل متميز موجود يُعلم عن وجوده بكم من المعلومات والصفات الخاصة به. هذا من جانب، ومن آخر يحيلنا فعل التمييز جدلية التمييز بين الخير والشر القاعدية الوجودية للفعل الأخلاقي، كيف ذلك؟

أ - للإجابة، نستحضر هنا قصة الخلق التي نجدها قصة مشتركة إلى حد بعيد بين الأديان السماوية، إذ وردت في سفر التكوين وتناقلتها الأناجيل وختاما مع القصص القرآني والتي اعتبرت دوما البداية الأولى للفكر الأخلاقي وانطلاقا منها بدأ فعل التمييز بين الخير والشر.

تروي القصة أن آدم وحواء أثناء وجودهما بالجنة لم يعيا مفهوم المنع والإباحة بل عاشا الإباحة - السماح - كهيئة لدرجة عدم تمكنهما من إدراك ووعي المنع إلى أن جاء طلب "الرب" أو "يهوا" المانع للاقترب من شجرة معينة ومنع الأكل من ثمرها "يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة فكلا من حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين" (الأعراف، الآية 19)

وهنا تحققت دلالة المنع في فكر كل من آدم وحواء الذين عاشا فعل الدهشة أمام الطلب ليظهر فعل آخر يُستلزم لزاما عن فعل المنع وهو الرغبة في الممنوع أو الاكتشاف إن نحن خففنا الحكم ليظهر أيضا فعل آخر ذو وظيفة علائقية تربط المنع بالرغبة وهو فعل الإغراء الذي نصفه بأنه وظيفي مارسه الشيطان أو الحية - كل حسب روايته - الذي أوقعهما في الخطيئة التي كان جزاءها النزول إلى الأرض، والشعور بالندم الشديد وطلب المغفرة من الخالق.

ولو تأملنا في فعل الإغراء هذا لوجدناه فعلا متحققا من خلال "حاسة البصر" أي ولفظ آخر هو فعل متحقق عبر "الصورة" التي نجدها فاتنة أو ممتعة للنظر وهذا ما دفع "فرأت المرأة أَنَّ الشَّجَرَةَ جَيِّدَةٌ لِلْأَكْلِ، وَأَنَّهَا بَهْجَةٌ لِلْعَيُونِ، وَأَنَّ الشَّجَرَةَ شَبِيهَةٌ لِلنَّظَرِ. فَأَخَذَتْ مِنْ ثَمَرِهَا وَأَكَلَتْ، وَأَعْطَتْ رَجُلَهَا أَيْضًا مَعَهَا فَأَكَلَ" (التكوين، 3.6). وفي رد المرأة على سؤال الرب تجيب بالقول "أَنَّ الْحَيَّةَ غَرَّتَنِي فَأَكَلْتُ".

يُستحضر من هذا القول كيف أن الصورة حملت دلالة سلبية في الفكر الإنساني وتمثلت في مخياله خطيئة ولعنة، وكيف كانت على مدى العصور وفي جميع الأديان التوحيدية رمزا للشر والرذيلة، إلا أنها عادت لتمثل دور الوسيط وتتجسد في الفن فانتفت عنها الدلالة السلبية، وها هي تعود اليوم من خلال التكنولوجيا.

ما نستنتجه هنا، هو أن التفكير في الأخلاق منبعه الحظر - المنع - المحدد والمميز للخير عن الشر وكيفية تعايش المشاعر الثلاثة في نفسية الإنسان: الرغبة... الإغراء... الخوف! (Le Cardinal, 2016)، والتطور العلائقي بين الأفراد والتغيرات الطارئة على سلوكياتهم أحدثت تغييرا متسارعا لهذه المشاعر وتوظيفها

خصوصا مع تطور مفهوم الاتصال والإعلام الذي ما انفك يراهن على فعل الإغراء لبسط النفوذ الفكري والثقافي إلى أن بتنا أمام ما يعرف "بأخلاقيات الاتصال L'Éthique de la Communication".

إذن، بالرغم من أن سؤال الأخلاق هو سؤال تقليدي نقدي... إلا أن تطور السلوكيات الفردية والتغيرات التركيبية المتغيرة للمجتمعات الإنسانية الحديثة والمعاصرة تعيد طرحه بشكل دائم ومتجدد وبكيفية تجعلنا كباحثين نعيد البحث في هذه الموضوعات - الأخلاق - بطرح يركز على الجانب العلائقي بينها وبين علوم أخرى حديثة ومعاصرة كعلم الاجتماع أو علم النفس والأنثروبولوجيا والإعلام والاتصال. هذا الأخير الذي يعد علما أو لنقل وسيلة رهناء وفعالة في نشر المعرفة وعرض المفاهيم.

ليس هذا فقط، بل وبمنظور نقدي أصبح الاتصال اليوم يحاول تزكية معرفة دون الأخرى محاولا توجيه القنوات الفردية لدى الأشخاص نحو أفكار أو رؤى يتبناها هو طبعاً؛ أي وبلغة إعلامية أصبح ينشر المعرفة وفقاً لأجندة مسبقة ذات إيديولوجيا معينة. الأمر الذي يفرض إعادة النظر في هذا العلم التكنولوجي بالأساس، على فرض أن الإعلام ذو طبيعة تكنولوجية تقنية.

إذن نحن أمام مقارنة أنثربولوجية للأبعاد التالية: الإنسان، الأخلاق، الاتصال وبالتحديد "الصورة"، إذ ما نرمي إليه هنا هو العودة لطرح سؤال الأخلاق والقيم لكن من منظور يخرج السؤال من تجريديته التقليدية ليحاول ربطه بالواقع المحسوس. بعبارة أخرى مقاربتنا هذه ترتب سلفاً لسؤال لا ينفك الباحث المعاصر عن طرحه بل وتلزمه أبحاثه بطرحه، وهو كيف يمكن لنا بناء ثقافة أخلاقية تجمع بين الصيغة التجريدية للبحث لمفهوم الأخلاق والواقع اليومي الذي تمارسه فيه أو تنعكس عليه - الأخلاق -، وهذا ما يعتبر تحدياً حقيقياً.

ب - من المعلوم أن الهدف من الاجتماع عند الإنسان هو تحصيل الكمال، وتحصيل الكمال غالباً ما ارتبط بالجانب القيمي الأخلاقي، لكن ومع التغيرات الاجتماعية والثقافية والعلمية في الحياة البشرية اتسع مفهوم الكمال ليغدو مطلباً لجميع الميادين أو هدفاً ترجوه كل العلوم، وعليه لا يمكننا الشك في أنّ تقنيات الاتصال في عصرنا اليوم من آليات الاجتماع التي تصبوا هي الأخرى إلى المنفعة والكمال. كيف لا والإنسان منذ القدم وهو يعي أهمية المعلومة في حياته اليومية، مع القياس بالزمن في عمليات الصيد والحرب بل حتى الطقوس الدينية.

ولا زال الأمر كذلك حتى تطورت الحاجة إلى المعلومات مع تطور الإنسان وتطور الأدوات التي استخدمها (الحوات، م، 2004، صفحة 63)، وهذا الأمر كان قياساً بالزمن والمكان الذي كان له الدور الرئيسي في أهمية الخبر.

إن مفهوم الاتصال، وإن كان مفهوماً مرتبطاً قدمه بقدّم الاجتماع والإنسان، إلا أن ما يهنا منه بالنسبة للموضوع هنا، هو تلك المساحة التي أصبح يخصها اليوم والشاكلة التي يظهر بها. لأن الاتصال فيما مضى كان مرتبطاً بكل ما هو اجتماعي/أنثربولوجي من موقع اللغة والأدوات (التقنية). فقد كان مثلاً في التبليغ والتبرير وحركة الإبداع في ميدان التقنيات التي بمقدورها نقل الكلام على شكل رسالة (اليحياوي، ي، 2004، صفحة 92)، حتى أضى اليوم - الاتصال والتقنية - قيمة إنسانية اجتماعية أساسية.

إلا أنه اليوم أصبحت تقنيات الاتصال بجميع دلائلها وتحققاتها في أرض الواقع "الافتراضي" تطرح إشكالية ثقافية فلسفية في غاية التعقيد تتعلق بفلسفة التجلي النقي لمفهوم الاتصال وعلاقته بالواقع؟. أي دلالة وأي تأثير في صناعة الفكر الإنساني وخاصة ذلك المتعلق بالأخلاقي والثقافي منه؟. فلقد أصبح هذا الأمر يمثل أداة الجمع والتقريب بين المسافات، بل أصبح المحرك الرئيسي للحياة اليومية بمختلف جوانبها حتى السياسية والاقتصادية، فهي هو عالم الصورة على سبيل المثال وقد غدا بسيطا ومنفتحا ومعلنا لمركزية كونية (عطية، أ، 2011، الصفحات 276-278).

اعتبرت وكالة هافاس أول مكتب للأخبار أنشأه "شارل لويس هافاس" سنة 1832، حيث حقق من خلالها نجاحا كبيرا على المستوى الإعلامي، وذلك من خلال الاعتماد على عاملي المساحة أو المسافة المغطاة بالخبر والزمن الذي يكفي لوصوله لتلك المسافة. وبعد مدة تمكن اثنان من معاونيه وهما "رويترو" و"وولف Walf" من إنشاء وكالة ومحطة للأخبار خاصة بهما، الأولى محطة رويتر في بريطانيا والثانية وولف في ألمانيا، مؤكدين على نفس الأهداف والوسائل التي أرادها رئيسهما وأصبعا منافسيه في المجال (Hans, 1992, pp. 13-52).

وهكذا، اكتسبت تقنيات الإعلام والاتصال مكانة لا يستهان بها وأصبحت أداة ثقافية سياسية في غاية الخطورة تستعمل من طرف الدولة في جميع تجلياتها، الدينية والسياسية والثقافية، (لتوجيه العامة من المواطنين والترويج للمبادئ القومية القطرية أي تسويق لأيديولوجيا معينة بغية الدفاع عما كانت اكتسحته العولمة في مجالات أخرى) حتى مطلع الستينات من القرن الماضي. حيث حمل أرباب السمع البصري، وفي فرنسا خاصة، شعار الاستثناء الثقافي حاملين "الإعلام" في طياتهم بل في محوريتهم بأنه حامل لقيم ثقافية بحثة، ومعتبرين أن السمع البصري كمجال نفعي يدخل في قائمة الأنشطة الاقتصادية بين ثنائية البيع والشراء في سوق من العالمية والتنافسية. حتى تم التصويت على القانون التوجيهي سنة 1989 الذي أطلق عليه تلفزيون بلا حدود (غزلان، 2010/2009، صفحة 50).

لكن، لعل أخطر النتائج التي تخشى من هذه الهيمنة هي تلك المتعلقة بالمسألة الأخلاقية القيمية، فلا يخفى علينا أن الكم الهائل من الصور والرموز والنصوص المرئية والمسموعة التي تتناقلها وسائل السمع البصري أو حتى الجرائد، باتت تشكل تحديا واضحا لمنظومات القيم الأخلاقية والثقافية بل وحتى الفكرية منها، من تقاليد وأعراف ورموز تاريخية وسلوكيات أخلاقية تعارفت عليها الحضارات.

فمثلا، في "التلفزيون تندرج" أكثر الأفلام وثائقية وحديثة في سيناريو ذاتي، يكون في أغلب الأحيان ضمنيا ومسكوتا عنه. فنحن لا نرى أبدا جريدة متلفزة أو استطلاعا كبيرا للرأي عن العراق أو فيتنام كما هو. ذلك أننا نقرأ سيناريوهات دراميا من خلال الصورة المباشرة وغير المنتظمة. إنه سيناريو لا يوجد على الشاشة أو بالصوت الخارجي وإنما في ذهني " (ريجيس، د، بدون سنة، صفحة 46).

ومن هنا، أصبحت هذه الأخيرة أي الثقافات العلمية تنسلخ تدريجيا عن هويتها الأساسية لتتأثر أمام هذا الكم الهائل المتدفق من الصور المؤدجلة والعلامات المرئية، والتي تحمل ضمنيا منظومة قيمية مغايرة

لتلك التي عرفتها الإنسانية، وتحمل معها أفكار ورموزاً وأبطالا تحاول من خلالها العمل على التأسيس للمخيل الاجتماعي البشري الحديث (بن جلطي، 2018/2017، صفحة 62).

لم تحترم أمواج الراديو الحدود أبداً، ومن ارتفاع 36.000 كلم لا تظهر الحدود الوطنية واضحة خاصة، وسيكون عالم الغد منفتحاً (ليستون، 1994، صفحة 149). هذا هو المجال التقني العام لميدان وحقل الاتصال بكل تشكلاته ودلالاته، فهو قابل لاختراق المكان والجغرافيا وعبور السيادة الوطنية. وعلى هذا سيكون أداة جد مناسبة للعولمة من موقع أن هدفها هو اختراق المكان والحدود.

لقد أضى - مجال الإعلام المعولم - ساحة لتبادل وتنقل الأفكار والإيديولوجيات والأشخاص والسلع والخدمات والمعارف. إذ أصبح بمقدور أي شخص شراء سلع وتفعيل خدمات عن طريق شبكات الانترنت، باعتبارها مجموعة مرتبطة من الحواسيب - أجهزة كمبيوتر - موصولة ببعضها وتتشارك البيانات والبرمجيات نفسها انطلاقاً من كمبيوتر مركزي يسمى المزود باعتباره آلة عالية الإمكانيات قادرة على القيام بعدة مهام وبسرعة عالية (عقراوي، ن، 2011، صفحة 158). كما يمكن للشركات تقديم عروض منتوجاتها على شبكات الاتصال، أو للراغبين في العثور على فرص عمل خارج الحدود كذلك سيجدون مبتغاهم في هذا العالم الافتراضي.

ما يهم هنا هو أن هذا المد الموجي العابر للحدود والدول أصبح يرتبط في تشكلاته بالعديد من الأرضيات الاقتصادية والثقافية بل وحتى السياسية، والأخطر من ذلك هو أنه أصبح بلا دولة وبلا أمة، لأنه خرج من خصوصيات وصلاحيات الدول والحكومات وأصبح منبر للعولمة في تجليها الإعلامي والاتصالي، بحيث غدت من خلاله هذه الأخيرة - العولمة - تتحكم في مجاميع الاتصالات والسمعي البصري بتوظيف أكثر من 500 قمر صناعي تمكنت فيه الدول المتقدمة في الهيمنة على الدول النامية، وذلك لامتلاكها تكنولوجيا وتقنيات البث بالأقمار الصناعية (عمر، 2000، الصفحات 71-89).

ما يلاحظ في هذا المجال هو تأثير مكانة "الصورة" في جميع مجالات العولمة الاتصالية وهيمنتها على السمي والكتابي، وتأثيرها المباشر والقوي على الثقافات العالمية. فأصبحت هذه الأخيرة - الثقافات العالمية - تنسلخ تدريجياً عن هويتها الأساسية لتتأثر أمام هذا الكم الهائل المتدفق من الصور والعلامات المؤدلجة.

ج - إن الصورة أكثر عدوى وأكثر وباءاً من الكتابة...، فهي تمتلك موهبة رئيسية تكمن في وضع لحمية المجموعة المؤمنة، وذلك لمهامات الأفراد بالصورة المركزية للمجموعة (ريجيس، د، بدون سنة، صفحة 72)، عبارة يختصر فيها ريجيس دوبريه الكيفية التي امتلأت بها مخيلة المشاهد لا شعورياً بفكر وثقافة دخيلين على ثقافته الأصلية ومغايرة لها تماماً. فهي - أي الصورة - تتحايل على مخيلة المشاهد وتعمل من خلال هؤلاء الأبطال على تمرير الرسائل والعلامات، وتعمل في الوقت عينه على ترسيخها في المخيل الشعبي لدى المجتمعات اليوم. فهي تستهدف الأصالة والتاريخ اللذين استلزما وقتاً ليس بالهين لكي يتأسسا.

لقد باتت التقنية والاتصال وسيلة السعي لنشر ثقافة قيمية أخلاقية جديدة، ثقافة يكون فيها المتلقي - الجمهور/ الشعب - مستهلك قابل لكل تلك الأفكار والمعتقدات السياسية والاقتصادية، لذا نجد الأيديولوجيا والتوجهات الفكرية اليوم تلعب بأوتار الإعلام وأساسه الصورة - كما وضعنا سابقا - لتسيطر على البشر والمجتمعات، وهو ما يتطلب منها في الوقت الحاضر وقبل كل شيء الاستخدام الموجه للإعلام، لأن القوة في هذا الصدد لا تفيد على المدى البعيد، فالحالة الشعورية لسكان بلد ما لها دورها الملموس في تحديد سلوكهم الاجتماعي وتهجمهم الثقافي (أشير، ه، 1986، صفحة 11).

إن هذا التعولم التكنولوجي التقني إن صح التعبير، والذي يحاول التأسيس لمنظومة قيم جديدة تحل محل التراث القيمي الأخلاقي، لم يعد على الإنسان بالفائدة بل ساهم في شرخ قوي في منظومة التواصل الاجتماعي لديه، وساهم الى حد بعيد في تفتيت النسيج الأخلاقي، لذلك وجب على الفكر الإنساني إعادة عملية التحليل العلمية الدقيقة والمتأنية لاكتشاف موضوع العلاقة بين الأخلاق والتقنية والاجتماع، خاصة في تجلياتها الاتصالية.

هذا التقاطع، هو ما سيعيد سؤال القيم والأخلاق والاجتماع إلى الساحة الفكرية الراهنة بشدة، خاصة وأن الأغلبية لم تنفك تفكر في مستوى الاختراق الأخلاقي الثقافي وكمية التدفقات الإشهارية أو الدرامية المصوّرة. كيف لا وهذا المستوى من الخلط في البنيات الأساسية يعيد التأسيس الدلالي لعلم الاجتماع التقليدي، كمفهوم بني فيما قبل على معطى القوميات المجتمعية، وعلى رقعة جغرافية محددة، لها تاريخها الخاص بعلم الاجتماع حركي قادر على تجاوز حدود الدولة - الأمة.

بتعبير آخر، ألا تؤسس ثقافة المشاهدة اليوم لنوع من التسليم اللامسؤول أو لنموذج من الأفراد المتفرجين اللأمالين والمتخاذلين، الذين لا يشعرون بالإدانة الأخلاقية أو الاشمئزاز تجاه الأوضاع الخاطئة المعروضة أمامهم، بشكل يجعل من المجتمعات الراهنة مجتمعات عاجزة ذات شمولية في الاختيار بأن تشارك عيش حالة الشفقة على الذات الإنسانية فقط بدل التحلي بالمسؤولية والالتزام تجاه قضاياها الراهنة؟

فهذه التدفقات المختزلة في الصورة المبهرة، المدهشة والمخدرة، الملتوية والمركبة كما وجدها دوبريه، والتي استطاعت اختراق ثقافات ومنظومات فكرية، بحيث تمكنت من تأويل وتحليل كل أشكال التصورات القيمية والثقافية... هل تقرب أم تبعد؟ ما المقصود من مجتمع الصورة أو التركيب الافتراضي؟ ما هي ثقافة الصورة؟ هل يحمل المشاهد ثقافة المشاهدة؟ أم أن الصورة أحالتنا إلى أمية المشاهدة؟

د - بناءً على هذه التساؤلات، لا تأتي هذه الورقة للإجابة عنها أو تقديم حلول جاهزة بقدر ما تهدف إلى عرض الأزمة التي تعاني منها القيم البشرية ومحاولة ضبط موضع الخلل على أساس أن "معرفة الداء نصف الدواء"، إذ لا يمكن التغافل عن أن الفرد اليوم بات "يعرف عمليات استباحة لخصوصياته وأنماط عيشه. فنحن نعيش في مجتمعات تجري فيها عمليات تنميط واسعة لمختلف

مظاهر الوجود. تتدخل في عملية التنميط عوامل لا حصر لها، تنقلها وسائط الاتصال الجديدة العابرة للقارات، وتمارس بواسطتها عمليات صناعة كائنات استهلاكية متشابهة" (عبد اللطيف، 2013).

كائنات تعاني نقصا حادًا في مفهوم "الانسجام الاجتماعي L'harmonie Sociale" بل على مستوى الفرد نفسه الذي أصبح جسده مفصول عن عقله وفكره وهويته مستأصلة عن الهوية الأم أو ضائعة لا تمارس أفعالاً بحيث تعيش حالة أشبه ما تكون بالعبثية أو حياة بدون معنى وهذا ما أحالتنا عليه الصورة بالخصوص التي تكلمنا عنها سابقاً والإعلام والاتصال بالعموم.

فبعد أن كان الفرد يتمتع بهوية خاصة تميزه، ونظام اجتماعي ثقافي معرفي خاص به داخل جماعة ما تتميز هي الأخرى بهوية اجتماعية ثقافية معينة تميزها عن باقي الجماعات الاجتماعية، على فرض أن "الأنا هي ترسب ثقافي" (بورون، بوريكو، 1986، صفحة 288)، أصبحت هناك تدفقات ثقافية عالمية في قبال هذه الأنا الثقافية الخاصة بالقومية. وهذا الأمر عن طريق الغزو التكنولوجي الإلكتروني الفضائي ملخصاً في مجموعة هائلة من الصور والمعلومات العابرة للحدود الجيوثقافية، مما يعني صغر مساحة العالم افتراضياً وصراع الثقافات والتراث المحلي من أجل البقاء وعدم الاضمحلال داخل التيار الجارف الثقافي العولمي.

إن التأثيرات التكنولوجية الحديثة، إضافة إلى أنها تأثر على الثقافات القومية والوطنية، فإنها تخلق إشكالاً جدّ خطير على المشروع الفلسفي الحدائ والمابعد حدائي، بطرحها الجديد لمفهوم المكان الافتراضي الموازي تماماً لمفهوم المكان الواقعي التاريخي. فشبكات التواصل الاجتماعي إضافة إلى الانترنت تشكل اختراقاً جد خطيراً للحدود الجغرافية القطرية والقومية للدولة، لتنسفها وتأسس على أنقاضها شبكة جديدة ونسيج جديد من العلاقات بالمكان والفضاء والثقافة (بن جليطي، 2017/2018، الصفحات 67-68).

إذن نحن أمام تغيير جذري يطال حقيقة التواصل البشري الإنساني، فالمسائل والإمكانيات الثقافية أصبحت ضعيفة، فخطأً وقتنا الحالي يكمن في الاعتقاد بإمكانية خلق مجتمع بلا تواصلات أو ثقافة بتجهيزات ثقافية¹، وبتعبير سوسيولوجي إن "المجتمع الصناعي الحديث يمارس أثراً تدميراً على المعتقدات الجماعية، لأنه يعزل الأفراد بعضهم عن بعض، ولأنه يذيب مجموعات التضامن والتقاليد التي تحملها (ريجيس، د، بدون سنة، صفحة 47).

فالأزمة اليوم انتقلت من مرحلة الصراع بالنص الكتابي الخطي النقدي وهي الوسيلة التاريخية التقليدية التي استخدمها الإنسان لنشر أفكاره ومواجهة الثقافات والشعوب الأخرى، إلى مرحلة

الصراع بالصور - التقنية - وحسب ريجيس دوبريه "ليست حركية الصورة والكلمة من نفس الطبيعة، ووجهتهما ليست هي نفسها. فالكلمات تقذف بنا نحو الأمام فيما ترمي بنا الصورة إلى الخلف، وهذا التراجع في زمن الفرد والجنس الإنساني يعتبر مسرعا ومحركا للقوة. إن المكتوب نقدي، أما الصورة فنرجسية. ومهمة أحدها الإيقاظ فيما تكمن مهمة الآخر في إنامة اليقظ والتنويم التدريجي" (ريجيس، د، بدون سنة، صفحة 89). بتعبير آخر إننا اليوم أمام نص بسيط جدا وفي الآن نفسه خطير جداً والنص - الصورة، التي بالرغم من أنها وجهة نظر جزئية حول العالم الواقعي، ولا ترتقي البتة إلى بناء نظرية كلية على الرغم من التقدم الكبير الذي عرفته وسائل التقنية والثروة الرقمية في الرصد والملاحظة (خويلدي، 2012)، إلا أنها تمارس دورا فاعلا جدا.

هذه الصورة التي "ترسل لنا الصور دائما بالإشارات. لكن لن تكون ثمة، ولم يكن أبدا لا في السينما ولا في غيرها دال متخيل، فإذا كان لسلسلة من الكلمات معنى، فإن مقطعا من الصور له ألف معنى" (ريجيس، د، بدون سنة، صفحة 45) وهنا تكمن الخطورة. إننا أمام ما يمكن تسميته "بسلطة الصور" إذ كما "أن ثمة كلمات تجرح وتقتل وتحمس وتخفف عن النفس... إلخ، كذلك ثمة صور تثير الغثيان والقشعريرة وتسيل اللعاب، وتساهم في انتخاب مرشح دون الآخر. إنه ابتذال مُلغز" (ريجيس، د، بدون سنة، صفحة 86)، وفي هذا الإطار يورد ريجيس دوبريه مثال الإشهار التجاري ويناقش من خلاله فاعلية الصور المبتوثة على شاشات التلفزيون في إنتاج أو إيجاد متخيل جماهيري يندفع لا شعوريا لمحاكاة ما تعرضه الصورة.

وهو في هذا الإطار يستعرض قصة "أحد المراهقين المنحرفين وقد تم القبض عليه وهو يمثل دور الزعيم في الضاحية الجنوبية لباريس، بعد أن داس راجلا، متجاوزا إشارتي ضوء أحمر وهو يستعرض سرعته بشكل جنوني يسأل القاضي: لماذا يملك رجال الشرطة في كاليفورنيا الحق في القتل ولا يسمح له هو بذلك" (ريجيس، د، بدون سنة، صفحة 87)، وهذا ما جعل علماء الاجتماع يؤكدون على أن العنف المبتوث في الصور التلفزيونية هو ما يؤثر على المراهقين وينتج لديهم مفاهيم معينة لا تستجيب للمفاهيم أو الأخلاقيات التي يحاول مجتمعهم نشرها.

خاتمة

يتضح مما سبق، أننا مطالبون بالتفكير في كيفية بناء مدونة أخلاقية جديدة تمكن مجتمعاتنا التي تعيش في مطلع الألفية الثالثة من مواجهة الاهتزازات العنيفة، والتغلب على أشكال الفوضى التي جعلت الأفراد يعيشون داخل المجتمع غربة داخلية، تنعكس على ميولاتهم وطموحاتهم، وتكسر أنماط ثقافتهم وقيمهم، الأمر الذي يستدعي لزوم التفكير في المخارج المناسبة، التي تسمح بإعادة بناء الذات في علاقتها الجديدة بالعالم والتكنولوجيا والمستقبل (عبد اللطيف، 2013).

بل أبعد من ذلك، فقد راحت تدمر الخصوصيات الهوياتية للشعوب وتعمم نموذجاً تجده أفضل وأنجع....، وهنا يستوقفنا سؤال مهمٌ جدًّا سبق وأن طُرِح في الوسط الفكري الثقافي: هل التقنية محايدة؟ وإن كانت كذلك هل من يعمل على هذه التقنية هو محايد بالضرورة؟ ما نستنتجه هنا، أن انتقالنا إلى مجتمع العوالم الافتراضية وهيمنة الصورة على الواقع اليومي الراهن، خلق لنا واقعا متشعبا ومعقدا يضرب مفهوم الانتماء والهوية داخل المجموعة الاجتماعية، بشكل أصبحنا نعيش "الخوف من ابتذال هذه القيم وتزويرها وتجويفها من كل مضمون إنساني وجمالي رفيع (بلقزيز، 2010)، هذا من جهة، ومن أخرى نشهد شيوع قيم إنسانية أصبحت تروج وتعتبر الحدود كأى منتج استهلاكي عالمي. لذا فإننا نحتاج الى الاستثمار في مواردنا القيمة قدر المستطاع، وذلك بتطويرها وتنقيحها من كل الشوائب التاريخية والغير علمية (بما في ذلك تنقيح التراث)، حتى يتسنى لنا عرضها محليا وكونيا من خلال نفس وسائل التقنية للاستفادة العالمية وللاستهلاك المحلي والدفاع بها عن كل منتج قيمي داخلي

إننا أحوج ما نكون اليوم لإعادة النظر في الطبيعة المشكلة لمنظومتنا القيمية الأخلاقية الراهنة، إذ أن الطبيعة المعرفية والثقافية والتقنية التكنولوجية السائدة اليوم والمتغيرة في تسارع هائل تفرض علينا أن نخرج السؤال الأخلاقي من نمطه التقليدي النقدي الباحث عن الخير والشر والغارق في إشكالية الحق والواجب، لنكيفه - أي السؤال - تكيفا يتناسب والمتغير اليومي الراهن الذي طغت عليه التقنية لدرجة أنها أصبحت تساهم بشكل واضح في صناعة منظومة أخلاقية فكرية جديدة، تحل محلّ المنظومة السائدة في مجتمع المعرفة.

بتعبير آخر يصبح السؤال هو كيف يمكننا التفكير في هذا التطور بدلا من التفكير إذا كان صحيحاً ذلك أم خاطئ (Delassus, 2016).

من خلال كل هذا ألا يمكن لنا أن نتقل من السؤال الأخلاقي الى السؤال السياسي من زاوية أن الفضاء الافتراضي هو القسمة الأكثر عدلا بين المواطنين اليوم؟

ألن يصبح المواطن الافتراضي العالمي، هو من سيصبح يمتلك أكبر قدر من "الديمقراطية الافتراضية" بحكم أن كل المواطنين العالميين والقُطريين متساوون في الحضور الرقمي الافتراضي؟

إن هذه الأسئلة ستذهب بنا لا محالة الى السؤال الجوهرى القديم والحديث في نفس الوقت وهو ما النظام السياسي الأمثل را هنا؟ هل النظام الديمقراطي هو الأفضل؟ هل مازال يمثل أكبر تجلي للمساواة واقعا أم أن الافتراض أصبح يحقق أكبر قدر من المساواة في التواجد والوجود؟

قائمة المراجع كتب

- Hans, Antoine Lefebvre. (1992). *Les Arcanes Du pouvoir*. Paris: B, Grasse.
- أشير، هيربرت. (1986). *المتلاعبون بالعقول*. (عبد السلام رضوان، المترجمون)، الكويت: سلسلة عالم المعرفة. القرآن
- الحوات، محمد علي. (2004). *العرب والعملة شجون الحاضر وغموض المستقبل* (الطبعة الثانية). القاهرة: مكتبة مديولي.
- دوبريه ريجيس. (بدون سنة). *حياة الصورة وموتها*. (فريد الزاهي، المترجمون): إفريقيا الشرق.
- ر، ف بورون، بوريكو. (1986). *المعجم النقدي لعلم الاجتماع*. (سليم حداد، المترجمون) الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- سفر التكوين. الإصحاح 3، الآية 6.
- عطية، أحمد عبد الحليم. (2011). *جيل دولوز سياسات الرغبة* (ط1). لبنان: دار الفارابي.
- ليستون، والتر. (1994). *أقول السيادة*. (سمير عزن جورج خوري نصار، المترجمون) عمان: دار النسر للنشر والتوزيع.
- نجدت عقراوي، (2011) *الاطار القانوني للأمن القومي*، دراسة تحليلية (ط1)، عمان: دار دجلة - 2011.
- الحيواوي، يحيى. (2004). *كونية الاتصال عملة ثقافية شبكات الارتباط والممانعة*. الرباط: منشورات عكاظ.

أطروحات

- محمد بن جلطي. (2018/2017). *العملة والفكر المتطرف آلية الخطاب وممارسة التفكيك* (أطروحة دكتوراه). 62. كلية العلوم الاجتماعية، وهران: جامعة احمد بن محمد.
- وداد غزلان. (2010/2009). *العملة والارهاب الدولي بين آلية التفكيك والتركيب* (أطروحة دكتوراه). كلية الحقوق والعلوم السياسية، باتنة: جامعة باتنة.

مقالات

- السيد أحمد مصطفى عمر. (2001, 03 20). *إعلام العملة وتأثيره في المستهلك*. *المستقبل العربي*، الصفحات 72-73.

مواقع أنترنت

- Delassus, Eric. (2016, 03 08). *Éthique et nouvelles technologies*. Consulté le 12 07 2019, sur hal: <https://hal.archives-ouvertes.fr/hal-01284830/document>
- Le Cardinal, Gilles. (2016, 09 30). *Communication et organisation*. Consulté le 11 18, 2019, sur Éthique de la communication: <http://communicationorganisation.revues.org/2676>.

- زهير خويلدي. (14 03, 2012). *فلسفة الصورة بين الرقص والاباحه*. تاريخ الاسترداد 24 02, 2020، من الحوار المتمدن: <https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=299055>
- عبد الاله بلقزيز. (30 03, 2010). *تاريخ الاسترداد* 03 01, 2020، من جريدة اليوم الالكترونية: <https://www.alyaum.com/articles/745168/-%D8%AF-%D8%B9%D8%A8%D8%AF-%D8%A7%D9%84%D8%A5%D9%84%D9%87-%D8%A8%D9%84%D9%82%D8%B2%D9%8A%D8%B2>
- كمال عبد اللطيف. (02 12, 2013). *أية قيم نريد؟ أسئلة وأولويات*. تاريخ الاسترداد 21 02, 2020، من مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث: <https://www.mominoun.com/events/-145>